أخبار المهدي بن تومرت

وبداية دولة الموحدين

تأليف

أبي بكر بن علي الصنهاجي
المكنا بالبيذق

دار المنصور للطباعة والوراقة - الرباط
1971

مقدمة

من بين الكتب التاريخية القليلة التي ألفت في بداية العصر الموحدي وسلمت من التلف الكلي كتاب من تأليف أبي بكر بن علي الصنهاجي المكنى بالبيذق سماه ناشره الأول (أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين).

وهو كتاب قيم جداً من الوجهة التاريخية، ترجع أهميته إلى كون مؤلفه شارك بنفسه في صنع الوقائع التي وصفها، لأنه أحد تلاميذ الفقيه محمد بن تومرت الهرغي مهدي الموحدين، ورفيق من رفقاء خلفه العبقري عبد المومن بن علي الكومي باني دولتهم، وإلى كون الأخبار التي تضمنها فيها من الدقة والتفصيل والسذاجة أيضاً ما يكشف جوانب غامضة من نفسية محمد بن تومرت وسلوك أنصاره وحقيقة دعوته، ويلقي أضواء على تنظيمات حركته ومراحل الصراع العنيف الذي اقترن في المغرب برجوعه إليه من رحلته المشرقية وانتهى بالقضاء على دولة المرابطين.

ويظهر أن الكتاب عرف فى الأول رواجاً فى الوسط الثقافى ، فقد اعتمده مؤرخان اثنان فيما وقفت عليه وجعلاه من مراجعهما فيما ألّفاه ، أحدهما ابن القطان صاحب كتاب نظم الجمان ، والثانى ابن عذارى صاحب البيان المغرب ، ولكنه اختفا بعد ذالك ، فلم يعد أحد من المؤرخين ينقل عنه أو يتحدث بشيء عن مؤلفه ، وإننى لأتخيّل المراحل التى قطعها هاذا المؤلّف منذ تأليفه فى منتصف القرن السادس الهجرى إلى أن نشرته المطبعة فى منتصف القرن الرابع عشر ، فأتصوّر أنّ البيذق كتب منه نسخة واحدة أهداها إلى أحد خلفاء الدولة الموحدية وأودعها خزانة من خزائنهم الواسعة فاستفاد منها من كان يمكنه الوصول إليها قبل أن تتيه بين آلاف من كتبها ودواوينها ، ثم جاءت فترة الفتن التى قامت بين الموحدين أنفسهم وبينهم وبين الخارجين عليهم إثر انكسار جيوشهم فى غزوة العقاب وما تلاها من خراب قصورهم ونهب ذخائرهم وتبدد أعلاقهم ومنها مجاميع كتبهم شذر مذر ، فكان حظ كتاب البيذق حظها : تبدل بالاستقرار فى خزائن قصور الخلفاء بالحضر الاستقرار بأحد حصون الرؤساء بالجبال ، فنالت منه الرطوبة

وعاثت فيه الأرضة فساداً ، فاختلّ نظامه وتمزّقت أوصاله إلى أن اهتدا إليه ناسخ من الأرياف فى أوائل القرن الثامن الهجرى (1) فأعاد كتابة ما بقي منه فى مجموع انتقل بطريقة من الطرق فيما بعد إلى مكتبة ديرسان لورانثو بمدينة الأسكوريال الاسبانية فحفظ فى إضبارة من أضابيرها لم توضع له جزازة ولا يعرف له محتوى أو مدلول حتى عثر عليه المستعرب العلامة ليفى بروفانسال أثناء أبحاثه البيبليوكرافية بتلك المكتبة سنة 1924 فاهتدا الكتاب بعد ضلال طويل ورأا النور بعدما حجبه ظلام كثيف زهاء ثمانية قرون .

وخلال الأعوام التالية اعتنا المستعرب المذكور بالكتاب وبما وجد معه من وثائق أخرا ترجع إلى العصر الموحدى (2) فترجمها كلّها إلى اللغة الفرنسية ، ثم قدم النصوص الأصلية والترجمة الفرنسية إلى دار كوتنر بباريس فنشرتها فى كتاب واحد سنة 1928 ومنذ ذالك الوقت بدأ المؤرخون المعاصرون ينقلون منه ويستشهدون بنصوصه ، كما بدأ الاهتمام بشخص مؤلفه ومحاولة

1) عام 714 بالضبط. واسم الناسخ ابراهيم بن موسا بن محمد الهرغي.

2) الوثائق الاخرا هي عدد من الرسائل الموحدية والمقتبس من كتاب الانساب في معرفة الأصحاب للبيذق نفسه.

التعرفِ عليه والتعريف به .

وبخصوص هاذه النقطة الأخيره تنبغي الاشارة إلى المقال القيّمِ الذى كتبه عن البيذق الأستاذ الوزيرُ السيد محمد الفاسى ضمن سلسلة المقالات المُهمّة التى كتبها قبل الحرب العالمية الثانية وأثناءها عن تاريخ الأدب المغربى، إذ هي المحاولةُ الأولا من نوعها للتعريف برجل يظهر من ثنايا حديثه وفصول كتابيْه الواصلين إلينا (3) أنه أحدُ الأقطابِ الذين قامتْ على سواعدهم الدعوةُ الموحدية وأغفله مع ذالك الزمان .

والآن وقد مرّ على نشر الكتاب لأوّل مرةٍ نحوُ نصف قرن وقلّ تداولُه وأصبح حكمُه حكم الكُتُبِ الخَطّية طلبت منى دارُ المنصور للطباعة والوراقة أن أقوم بتحقيقه استعداداً منها لطبْعه وجعْلِه قريبَ التناول من أيدى المثقفين ، فلبَّيْتُ طلبها علماً بقيمة نشر هاذا الأثر من آثارنا العلمية وأشباهه ونظائره .

وقد اعتمدتُ فى تحقيقى للكتاب – أو للنبذة الباقية منه على الأصح – على النص المنشور بباريس ؛ لأنه لم يقدّرْ لى أن

3) الكتاب الثاني هو المقتبس من كتاب الانساب المشار اليه آنفا.

أطلع على الأصل الخَطي المحفوظ بالاسكوريال ، وهو نصٌّ لايخلو من أخطاء رسمية ولغوية ونحوية بعضُها من عمَل المؤلف نفسِه وبعضُها من عمل الناسخ أو الناشر ، فأخرجتُ منه نسخة هي أدنا إلى الصحة ، ثم قمت بالتعليق على ما اعتقدتُ أنه فى حاجة إلى تعليق من جمله وألفاظه ، لاسيما الكلماتِ والعباراتِ العاميّةَ الواردة فيه بكثرة والدالّة على أن لغةَ التخاطب بين عرب المغرب لم تتطور من العصر الموحدى إلى الآن كثيراً ، معتمداً على فطنة القارئ ونشاط الباحث فى الباقى ، مُجتنباً الحشو الذى يعمد إليه بعض الباحثين فيصيرون به حواشيَهم وتعاليقَهم أحياناً أكبر من متن الكتاب الذى يحققونه .

وعسا أن تسمح الايام بالعثور على نسخة كاملة من كتاب البيذق تتيح لى أو لمَنْ يأتى من بعدى أن يُعيدَ طبعَه ويقول عنه وعن مؤلفه ما لم أقُل ، فإن ما ظهر فى هاذه السنين الأخيرة من تُراثنا العلمى والأدبى المقبور يجعلنا أدنا إلى الثقة والتفاؤلِ بالعثور على باقيه فى زمنٍ لن يطول .

الرباط – الأربعاء 20 أكتوبر 1971 — عبد الوهاب بن منصور

باب نذكر فيه
دخول سيدنا المعصوم رضي الله عنه تونس

.... (I) وكان طلبتها يأتون إلى الامام رضي الله عنه يأخذون عنه العلم، فلما كان بعد خمسة عشر يوماً صلاً الظهر يوم الجُمعة ، فلما صُلّيت الفريضة صلاً على الجنائز ، فنظر الامام إلى جنازة من وراء الناس فقال لهم لِمَ لا تُصلون على هاذه الجنازة ؟ قالوا له هو يهودى وكان يصلى ، فقال لهم رضي الله عنه أفيكم مَن يشهد له بالصلاة ؟ فقال الناس نعم من كل جانب ومكان ، فقال لهم قد شهدتم له بالايمان ، ثم أمر مَن يقيم الصفوف وصلاً عليه ونحن من ورائه ، فلما صلاً دعا بالفقهاء ووبّخهم وعرفهم بالسنة وبين لهم الكتاب العزيز ، فقالوا له بعد أن عرفوا الحقّ جهلنا يافقيه ، فكانوا يأخذون

I) من هنا يبدأ الطرف الباقى من الكتاب ، والمؤلف يتحدث هنا عن مقام محمد بن تومرت بتونس خلال رجوعه الى وطنه من رحلته المشرقية ، وتكاد تجمع الروايات التاريخية على أن ذالك الرجوع كان فى بداية عام 510 هـ أو العامين اللذين بعده ، وقد ركب ابن تومرت فى رجوعه الى المغرب سفينة من الأسكندرية بعد ما نفاه واليها منها ومر بطرابلس والمهدية قبل أن يدخل تونس ويواصل منها السفر غرباً ، وكان كلما دخل مدينة نصب نفسه فيها للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فيتضايق منه الولاة وينفونه أو يؤذونه بسبب ذالك ، وذكر عبد الواحد المراكشى فى المعجب أنه فعل ذالك أيضاً فى السفينة التى ركبها من الأسكندرية حتى تضايق منه ركابها والقوه فى البحر ، ولا شك أن البيذق تحدث عن كل ذالك فى الأوراق الأولا المفقودة من كتابه لأنه كان رفيقاً له فى السفر . كما تحدث عن أصله ونشاته وطلبه ورحلته من وطنه وبداية دعوته .

عنه العلم أياماً عديدة ، فلما كان بعض الأيام أمرنا بالأخذ على أنفسنا ، وقال لنا نتوجه إن شاء الله نحو الغرب ، فخرجنا من تونس ونحن أربعة نفر كما كنا أول القدوم : سيدنا المعصوم رضي الله عنه ، ويوسف الدكالى ، والحاج عبد الرحمان ، وعبدكم الفقير المؤلف لهاذا أبو بكر بن علي الصنهاجى المكنّا بالبيذق ، فلم نزل نجدُّ السيرَ حتى وصلنا قسنطينة ونحن فى أمْنٍ من الله ، ما رأينا إلا الخير .

باب نذكر فيه

دخول سيدنا المعصوم رضى الله عنه قسنطينة

وذالك أنه لما دخل سيدنا المعصوم قسنطينة نزل بها عند الفقيه عبد الرحمان الميلى ، ويحيا بن القاسم ، وعبد العزيز بن محمد ، وكان أميرها ابن سبع بن العزيز ، وكان قاضيها قاسم بن عبد الرحمان ، وكان الطلبة الذين بها يأتون المعصوم يقرأون عليه ، فلما كان فى بعض الأيام سمع صوت مناد وهو ينادى هاذا جزاء الحلاّل ، فقال المعصوم : ما هاذا النداء ؟ فقالوا له هاذا حلاّل (2) يأخذ أموال الناس ويدخل عليهم ليقتلهم فقال ليس عليه سياط ، إنما عليه القتل ، ولكن يجزيه ذالك الضرب ، فبينما هم كذالك إذ سمع منادياً ينادى هاذا جزاء أهل السرقة ، فقال ياقوم ، تركتم الشرع ، إنما يجب عليه قطعُ اليد ، فقالوا له يافقيه ، فما نصنع به ؟ فقال لهم إنما هاذا الضرب يقوم له مقام قطع اليد بجهلكم ، لأنه لا يجوز جمعُ حدّيْن فى ذنب واحد ، ثم قال للسارق تُبْ ، فقال يافقيه أنا تائب لله تعالا بقلب صادق ، فتاب على يد الامام المعصوم رضي الله عنه ، وعلمه من شروط التوبة وبينها له . ثم قال لنا الامام المعصوم رضي الله عنه لتأخذوا على أنفسكم غداً إن شاء الله ، فلما أصبح خرجنا من قسنطينة ، فلم نزل نجدُّ السير حتى دخلنا بجاية وبالله التوفيق .

2) الحلال فى عربية المغرب القديمة هو السارق .

باب نذكر فيه

دخول سيدنا المعصوم رضى الله عنه بجاية

وذالك أن المعصوم رضي الله عنه لما دخل بجاية (3) نزل بمسجد الريحانة ، وكان ينها الناس عن الأقراق الزرارية وعمائم الجاهلية ولباس الفتوحيات (4) ويقول لا تتزيّوا بزي النساء ، لأنه حرام ، وكان يبيحُ الطيب للرجال والنساء ، وكان الفقهاء يأتونه الذين منهم محرز ، وإبراهيم الزبْدوى ، وإبراهيم بن محمد الميلى ، ويوسف بن الجزيرى الجراوى ، وعبد الرحمان بن الحاج الصنهاجى القاضى ، وذالك فى شهر رمضان المعظم ، فلما كان يوم الفطر اختلط الرجال والنساء فى الشريعة (5) ، فلما رآهم الامام رضي الله عنه دخل فيهم بالعصا يميناً وشمالا حتى بدّدهم ، فلما رآه ابن العزيز يفعل ذالك قال له يافقيه لا تأمر السوقةَ بالمعروف وهم لا يعرفونه ، فانى أخاف أن يأمروا فيك وتهلكهم ، لا يستوى حر كريم مع شيطان رجيم . فسار الامام رضي الله عنه الى ملالة (6) فلما رأوه قال له بنو العزيز يافقيه نريد أن نبني لك مسجداً هنا ، فقال لهم رضي الله عنه إن شئتم ، فبنوا له مسجداً ، وأقبل الطلبة يصلون إليه من كل مكان ،فلما كان فى بعض الأيام دخل المدينة حتى وصل باب البحر فأهرق به الخمر ، فقال المؤمن تمار والكافر خمار ، فرما

3) ذكر ابن أبى زرع فى كتابه **الأنيس المطرب بروض القرطاس** أن وصول محمد بن تومرت الى بجاية كان فى أول ربيع الأول سنة 510 (الجمعة 14 يوليوز 1116 م) ويجعل ابن القطان وابن خلكان وصوله اليها فى سنة 511 أما ابن خلدون فيجعل ذالك فى سنة 512 هـ .

4) الأقراق جمع قرق : شبه الخف ، ما زالت هاذه الكلمة مستعملة فى المغرب الأوسط ، والفتوحيات جمع فتوحية لباس يشبه ما نسميه نحن فى فاس بالمنصورية والفرجية .

5) مصلا العيدين .

6) قرية بظاهر بجاية كانت تسما بالبربرية تاملالت .

فيه اليدَ عبيدُ سبع ، وقالوا له مَن أمرك بالحسبة ؟ فقال : الله ورسوله ، ثم رجع إلى المسجد المذكور ، وهاذا المسجد مبنى عند دار يرزيجن بن عمر المكنَا أبا محمد الذى سماه المعصوم رضي الله عنه عبد الواحد (7) فكان الطلبة يقرأون العلم عليه ، فاذا فرغوا جلس بين الطرق تحت خروب العجوز ، وهو أبداً ينظر الى الطريق ويحرك شفتيه بالذكر ، وذالك الموضع يعرف بخروب العجوز ، فبينما هو ذات يوم قاعد إذ سمعناه يقول : الحمد لله الذى أنجز وعده ونصر عبده وأنفذ أمره ، وأقبل نحو المسجد وركع ركعتيْن ، ثم قال : الحمد لله على كل حالٍ ، قد بلغ وقت النصر ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ، يصلكم غداً طالب طوبا لمَن عرفه وويل لمن أنكره ، فلما سمع الناس غداً يصلكم طالب حاروا فى أمره .

وذالك أن الحق تبارك وتعالا أزعج أمير المؤمنين الخليفة عبد المؤمن ابن علي رضي الله عنه من بلده نحو المشرق ، فجد حتى وصل بجاية هو وعمه يعلو ، وذالك أنه لما خرج الخليفة أمير المؤمنين مع عمه رضي الله عنهما جدا حتى وصلا متّيجة (8) فنزل بها عند الفقيه أبى زكرياء وأخيه صَنَغ فأقاما بها أياماً حتى ان الله تعالى أرأا منامة للخليفة رضي الله عنه ، وذالك أنه رأا صحفة من طعام على ركبتيه يأكل الناس منها كافة ، فلما أصبح قال لعمه ياعم رأيت كذا وكذا ، فقال له اكتُم هاذه الرؤيا ، وارتحلا حتى وصلا لبني زلدوى فرأا المنامة بعينها إلا أن الصحفة على رأسه والناس أجمع يأكلون منها ، فأعلم أيضاً عمه ، فلما أصبح أقبلا يجدان السير حتى نزلا بجاية ونزلا بها فى مسجد الريحانة ، فلما صليا الصبح سمعا الناس يقولون سيروا بنا نحو الفقيه فقال لهم الخليفة أمير المؤمنين رضي الله عنه : ومَن الفقيه ؟ قالوا له السوسى ، هو عالم المشرق والمغرب ، وما مثله إنسان ، فقال لعمه ياعم سر بنا نحوه إن شاء الله ، ولما وصل الخليفة رضي الله عنه بجاية وجنَّ عليه الليل

7) هو عبد الواحد المعروف عند الموحدين بالشرقى أحد أصحاب المهدى المقربين اليه .

8) اسم قبيلة بربرية سمى بها السهل الواقع خلف مدينة الجزائر حيث مدينة البليدة الحالية وقد كانت به قرية آهلة تدعا متيجة ايضاً .

قرأ حزبه وصلاَّ ورده فى تلك الليلة ، ثم نام فرأا الرؤيا بعينها إلا أن الناس يبايعونه ، فلما أفاق أعلم عمه بها ، فقال له اكتم هاذا الأمر فانه رأت أمك وهي بك حامل كأن النار تخرج منها وتحرق المشرق والمغرب والقبلة والجوف ، فقال لها المعبر بتلمسان لابد لهاذه المرأة من مولود يكون أمره يأخذ المشرق والمغرب والقبلة والجوف ، ولكن اكتم هاذا الأمر ولا تعرف به إنساناً ، وكذالك قال لى أبوك عليٌّ ، ولقد رأيت فى أمرك موعظة ، كنا نحصد الزرع وأمك بك حامل ، فجاءت للفدان واضطجعت نائمة ، فأقبل بندان من نحل فنزلا على أمك ، فلما خلقت أنت أتت أمك الفدان فلقطت السنبل وتركتك نائماً ، فنزل أيضاً عليك النحل أكثر مما كان نزل على أمك وأنت فى جوفها ، ثم قام النحل عنك وافترق فرقتين واحدة للمشرق وأخرا للمغرب ، فقال علي الله أكبر ، هاذا هو الذى قال الفقيه بتلمسان ، فلما رجعنا من الفدان قال لأمك احفظيه فانه لابد له من الأمر الذى ذكر الفقيه المفسِّر ، فكانوا ينتظرون منه حتى بلغ مبلغ الرجال ، ونشأ على الحفظ والقراءة ، وكان رضي الله عنه كثيرَ الفهم يفهم الناس مسألة ويفهم هو عشرة ، فلما سمع رضي الله عنه مقالة عمه قال له ياعم اخرجْ مع الناس أرى هاذا الفقيه السوسى ، وأقول له هاذه المنامات وهاذا الأمر واسأله فى أحوال الديانات والواجبات ، فانى أسمع الناس يذكرون مغربات أقواله وصلاح دينه وفهمه للكتاب والسنة ، فقال له سر إليه وأسرعْ لأنَّا على السفر (9) .

9) لا شك أن الخيال الدعائى لعب دوراً كبيراً فى تصوير الكيفية التى تم بها لقاء عبد المومن بن على بشيخه ابن تومرت ، وأقرب الروايات الى العقل ما ذكره ابن القطان فى **نظم الجمان** من أن طلبة تلمسان لما توفى شيخهم عبد السلام التونسى دفين قرية العباد جوار الشيخ أبى مدين الغوث ندبوا رفيقهم عبد المومن للذهاب الى المشرق بقصد استقدام ابن تومرت الى تلمسان ليحل محل شيخهم المتوفا فى تدريس العلم بها ، وقد كان خبره بلغ اليهم ، فخرج عبد المومن مع عمه بقصد الحج واستقدام الفقيه ، فلقياه بملالة عائداً من المشرق فاصطحبا وعدل عبد المومن عن مواصلة السفر للحج ، وعاد مع شيخه لا الى تلمسان ليأخذ بها مع رفاقه عنه العلم ولكن الى جبال المصامدة بأقصا المغرب ليبث معه الدعوة ويتولا بعده الملك !

باب نذكر فيه
اتصال الخليفة بالامام المهدى رضى الله عنهما

اِعلم ياأخى أنه لما جد السير نحو الامام اجتمع مع الطلبة فى طريقه فاصطحب معهم حتى بلغ باب المسجد ، فرفع المعصوم رضي الله عنه رأسه فواقفه أمامه ، فقال له : ادخل ياشاب فدخل ، فأراد أن يقعد فى جملة الناس ، فقال له الامام المهدى المعصوم رضي الله عنه : ادنُ ياشاب ، فلم يزل يدنو من الامام والمعصوم يُقربه حتى دنا منه ، فقال له المعصوم : ما اسمك يافتا ؟ فقال : عبد المؤمن فقال له المعصوم : وأبوك علي ؟ فقال نعم ! فتعجب الناس من ذالك ، فقال له ياشاب من أين إقبالك ؟ قال له : من نظر تلمسان ، من ساحل كومية ، فقال له المعصوم من تاجرا (IO) أم لا ؟ فقال له نعم ، فزاد الناس تعجباً ، فقال له المعصوم رضي الله عنه أين تريد يافتا ؟ فقال ياسيدى نحو المشرق ألتمس فيه العلم ، فقال له المعصوم رضي الله عنه : العلم الذى تريد اقتباسه بالمشرق قد وجدتَهُ بالمغرب. فلما إنصرف الناس من القراءة أراد الخليفة أن ينصرف ، فقال له المعصوم رضي الله عنه : تبيت عندنا ياشاب ، فقال له : نعم يافقيه ، فبات عندنا فلما جنَّ الليلُ نادانى المعصوم : ياأبا بكر ، ادفع لى الكتاب الذى فى الوعاء الأحمر ، فدفعته له وقال لى : اسرج لنا سراجاً ، فكان يقرأه على الخليفة من بعده وأنا يومئذ ماسكٌ السراج أسمعُه يقول : لا يقوم الأمر الذى فيه حياةُ الدين الا بعبد المؤمن بن علي سراج الموحدين ، فبكا الخليفة عند سماع هاذا القول ، وقال يافقيه ما كنت فى شيء من هاذا ، إنما أنا رجل أريد ما يطهرنى من ذنوبى ، فقال له المعصوم : إنما

IO) ما زالت قرية تاجرا معروفة باسمها الى اليوم ، وهى موجودة بتراب قبيلة بنى عابد المستقرة على ساحل البحر الى الشمال الشرقى من مدينة ندرومة وغربى نهر الفناء (تافنا) .

تطهيرك من ذنوبك صلاحُ الدنيا على يديْك ، ثم دفع له الكتاب وقال طوبا لأقوام كنت مُقدمَهم ، وويلٌ لقوم خالفوك أولهم وآخرهم ، أكثرْ من ذكر الله يبارك الله لك فى عمرك ويهديك ويعصمك مما تخاف وتحذر ، ثم قال لى المعصوم رضي الله عنه ياأبا بكر : ناد الصبيان للورد يقومون يأخذون حزبَهم ، فلما أقبلوا ناداهم فقال لهم إنما الله إلاهٌ واحد ، والرسول حق ، والمهدى حق ، فاقرأوا حديث أبى داوود تعرفوا الأمر ، وعليكم بالسمع والطاعة لربكم ، والسلام . فأخذوا وردهم وقرأوا حزبهم ، فلما أصبح أقبل يعلو عمُّ الخليفة أمير المؤمنين رضي الله عنه ، وقال له ياعبد المؤمن حبستنا حتى تقلع المراكب ، فقال له المعصوم رضي الله عنه : العلم الذى يريد اقتباسه بالمشرق قد آتاه بالمغرب ، فاترك الأمر على مراد الله والامام .

وكان يقرأ على الامام المعصوم رضي الله عنه وكان أفهم الطلبة ، وكان إذا أراد النوم يقول له المعصوم رضي الله عنه كيف ينام مَن تنتظره الدنيا ، فلم يزل على تلك الحال أشهراً ، فلما كان يوم من الأيام أقبل رجلان يريدان المشرق : اسم أحدهما عبد الله بن عبد العزيز ، والآخر عبد الصمد بن عبد الحليم ، فقال لهما الامام رضي الله عنه من أين أقبلتما أيها الرجلان ؟ قالا من بلاد المغرب ، ولما وصلا بقيا باهتَيْن ، فقال لهما الامام المعصوم رضي الله عنه ما لكما لا تتكلمان ؟ فقالا له نحن ما نفهم العربية بلسانهما ، وقالا له يافقيه ، وصلنا من درن (II) من تينملل (I2) فسألهما فى قولهما ، ودعا لهما وسارا ، فلما أمسا المساء قال لنا : عوّلوا على السير نحو المغرب إن شاء الله ولا حول ولا قوة الا بالله.

II) جبال الأطلس .

I2) قرية واقعة بتراب بطن فرغوسة أحد بطون قبيلة كدمة (وكدمت) الكندافية ، على بعد كلم واحد من الطريق الذاهب من مراكش الى رودانة (الكيلومتر IO4) ، بها قبر المهدى وخليفته عبد المومن بن على وأطلال مسجد عظيم .

باب نذكر فيه

الخروج من ملالة وسير المعصوم نحو الغرب

إعلم أنه لما أراد الامام السير نحو المغرب دعا براحل والدة يرزيجن بن عمر المكنّا بعبد الواحد الشرقى ، وقال لها ياراحل ، تتركين ابنك عبد الواحد يسير معنا ؟ فقالت له يافقيه ، هو معك إذا أراد أن يسير يسير ، فقال لها ياأمى أسير معهم ، فقال لها المعصوم : له فى هاذا خيرة ، فقالت له : يسير حيث ما حملته ، فقال لها : ياراحل اتركى لنا الدابّة تحمل الأسفاط ، فدفعت لنا فلوة شهباء بيضاء البطن ، فلما وصلت قال لى المعصوم ياأبا بكر خذها ، فأخذتها فكنت أخدُمها ، فخرجنا حتى وصلنا متيجة ، فلما نزلنا بها ، قال لى عبد المؤمن بن علي الخليفة أمير المؤمنين أتعرف دواء للمشق (13) فقلت له يامولاي والله لا أعرف له دواء ، فلما أصبح سرنا فكان الخليفة يتأخر وكان الامام المعصوم يقول له سر ياعبد المؤمن ، فقلت للمعصوم إنه ممشوق ، فقال المعصوم ياعبد الواحد ركّب أخاك وامش ، فلما سمعه هاب ، فردّ المعصوم رأسه إليه وقال له إركب ، فركبه فأطرق عبد الواحد برأسه إلى الأرض ، فقال له الامام ياعبد الواحد طيِّبْ نفسك ، فلقد يجازيك عليها بالقصور المشيدة والجوارى المزينة والخيول المُسومة ، وكان مبيتُنا فى متيجة عند جبارة بن محمد ، وأعطاه الامام خط يده ، وعند الفقيه أبى زكرياء ، ثم خرجنا من عنده نحو الأخماس ، فلما دخلنا الأخماس وجد فيه المعصوم مسجداً مهدوماً فأمر ببنيانه فبُني .

13) تحرق الركبتين والربلتين من كثرة احتكاكهما أثناء المشى .

ثم منها نحو كساس ن ومرمور فوجد بها مسجداً معطلا فأمر بعمارته فعمر ، ثم منها نحو مليانة ، ثم منها نحو وانشريش ، فنزلنا بالحضرة فوجدنا بها عبد الله بن محسن الونشريشى المكنّا بالبشير (14) ثم منها نحو تينملت متاع بنى يزناسن فأمر المعصوم ببناء مسجد ، وهم بنو يزناتن متاع تنس (15) ثم قمنا منها وبتنا بشلف عند الفقيه أبى الربيع ، وكتب له الامام خط يده وأكرمونا غاية الاكرام ، ثم منها نحو البطحاء ، ولما أشرفنا على البطحاء قطع بنا إنسان يقال له يوسف بن عبد العزيز ، وقال سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، سألتكم بالله العظيم إلا ما سرتم معى ، فان قلبى طاب عليكم ، فقال المعصوم سيروا معه لا تفسدوا عليه خاطره ، فلما نزلنا عنده قال سألتكم بالله العظيم لا تفسدوا علينا سيرتنا ادفعوا لنا مَن يختار ضيافتكم من الغنم ، فقال المعصوم لعبد المؤمن سرْ معه ، وقال لى مُرَّ أنت معه ، فسرت معه حتى وصلنا الغنم ، فاختار كبشاً عسلياً أقرن ، فلما كان من الغد قال باسم الله العظيم اختاروا كبشكم ، فقال الامام المعصوم سيروا معه فأتينا نحو الغنم ، فأخذنا كبشاً أكحل العينيْن فأتيته به فذبحه ، فلما كان اليوم الثالث سرت معه واخترت كبشاً عسلياً مثل الأول ، وقال الامام المعصوم فى اليوم الثالث هل رأيتم أكرم من هاذا الرجل ؟ ياشيخ ما اسمك وما اسم أبيك ؟ فأعلمه ، فكتب له المعصوم خط يده ، وقال أعطنى جلداً فدفع له جلداً من مزود ، فأخذه المعصوم وجعل له حرزاً وقال له ياشيخ امسك هاذا عندك ، فان مت يكون عند بنيك فانه خير لك ولعَقِبِك حتى يصل الى هاذا الموضع ملك وعسكر فادفع البراءة من يديك ليد الملك ولا تعطها أحداً غيره ، فقال له نعم ، فارتحلنا ، فلم نزل نجد السير حتى وصلنا تلمسان بالعافية .

14) عبد الله بن محسن البشير الونشريسى ، من أهل المغرب الأوسط ، لقى المهدى أثناء مروره بجبال ونشريس عندما كان راجعاً من رحلته المشرقية الى وطنه فأعجب به وتتلمذ له وتبعه وصار من خواصه ، ولما بدأ المهدى تنظيم حركته كان من العشرة الذين سارعوا الى بيعته ، وصار بذالك من **أهل الجماعة العشرة** الذين كانوا بمثابة هيأة تنفيذية لها ، وأناط به المهدى كثيراً من المهام أثناء نضاله ضد المرابطين ، فقاد عليهم عدداً من الحملات ، وتولا تمييز الموحدين ، وفقد فى وقعة البحيرة بأبواب مراكش التى هزم فيها المرابطون الموحدين يوم السبت 12 أبريل 1130 (2 جمادى الأولا عام 524 هـ) .

15) مدينة ساحلية بين الجزائر ووهران ، كثيراً ما يغلط النساخ فى رسمها فيكتبونها تونس .

باب نذكر فيه

دخول المعصوم تلمسان

إعلم ياأخى أنه لما دخلنا تلمسان نزلنا بأكدير (I6) عند ابن صاحب الصلاة ، ولما دخل المعصوم تلمسان وجد بها عروساً تُزفُ لبعلها وهي راكبة على سرج واللهو والمنكر أمامها ، فكسر الدفوف واللهو وغيَّر المنكر وأنزلها عن السرج ، فالتزم الطلبة المذاكرة للامام المهدى الذين منهم أبو العباس الشريف ، ومحرز بن يوسف التونسى ، وعلي بن صاحب الصلاة ، وابن جبـل ، وعثمان بن صاحب الصلاة ، ويحيا بن يافيطين الكـزولى ، وعبد الرحمان الورتندى ، وعلي بن سليمان الكومـى ، وعبد الرحيـم ومحمد ابن عبد الرحمان المديونى ، فرأوا ما لا يُطيقون ، فلما كان يوم من الأيـام طلع المعصوم بين الصخرتين ونظر يميناً ويساراً فقال ما اسم هاذه المياه ؟ وما اسم هاذا الوطاء ؟ وما اسم هاذا الموضع ؟ فعرفوه أن اسمه كذا وكذا ، فقال لهم بين أظهركم هنا طالب" ينزل بمحلته هناك فى المياه ويسمع ضجيجها من هاذا الموضع ، ثم رجع إلى المدينة وقال نسير غداً إن شاء الله على بركة رسول الله .

باب نذكر فيه

ارتحال المعصوم من تلمسان

إعلم أن المعصوم لما خرج من تلمسان جد بنا السير حتى نزلنـا وجدات (7I) وكان بها ابن سامغين وقاضيها محمد بن فارة ، فنزلنا عندهما

I6) **أكدير** : اسم الأحياء السفلا من تلمسان ، ما زالت تدعا كذالك الى اليوم ، بها المسجد الذى بناه الامام ادريس بن عبد الله الكامل مؤسس الدولة الادريسية المغربية .

I7) **وجدات** ج وجدة المدينة المغربية الشهيرة ، كانت فى بدايتها تتكون من عدة قرا منفصلة عن بعضها بأسوار فكانت تدعا بسبب ذالك وجدات ، ولما ضمت القرا المذكورة الى بعضها وصارت مدينة واحدة دعيت وجدة بالافراد .

فأقبل الفقهاء يهرعون نحو الامام المعصوم الذين منهم زيدان ويحيا اليرنانى ويوسف بن سمغون ، وعبد العزيز بن يخلفتن السوسى ، فكـان المعصوم يأمرهم أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر ، فلما خرج فى اليوم الثانى نظر إلى النساء يستقين والرجال يتوضأون ، فقال أليس هاذا منكراً ، النساء مع الرجال مخلوطين ، إصنعوا لنا ساقية وصهريجاً عند الجامع ، ففُعِـل ذالك ، فلما فُعِل أمرنا المعصوم بالسير ، فجدَّ بنا السير حتى وصـل صاء (I8) ، فلما دخل صاء نظر النساء مزينات محليات يبعن اللبن فغطـا المعصوم وجهه حتى جازهن ، وكان الفقيه يحيا بن يصليتنْ حاضراً فقال له الامام كيف تترك النساء محليات مزينات كأنهن قد زُفِفْن لبُعُولتهن ، أما تتقون الله فى تغيير المنكر ، لا سبيل لهم لما يصنعون ، فانما يصنعون أفعال الجاهلية الأولا ، وإنما يخالفون الله فى أفعالهم ، هلا اعتبروا قوله تعالا : (وقلْ للمؤمنات يغضُضْنَ مِنْ أبصارهِنَّ ويحفظْنَ فروجَهُنَّ ولا يُبدين زينتهُنَّ إلا ما ظهر منها) الآية ، فغيَّر المنكر وأمر بالمعروف وسار نحو أكرسيف (I9) وكان بهـا يومئذ عمر ابن تاكرطاست والحاج التكرورى ، فنزل بها المعصوم عند حلّي وأخيه الحسن ابنيْ أبى تجارة وغيرهما ومحمد بن تاسكورت ودحمان بن منينة ، وعلي بن محمد الزناتى ، ويوسف المواسى ، فأمرهم المعصوم بالمعروف ونهاهم عن المنكر ، فسمع يوماً من الأيام أن رجلا صُلِب حياً فخرج اليهم وبدَّدَ شملهم ، وقال لأيٍّ معْنا يُصلَب الأحياء؟ إنما الصلب للأموات إن كان وجب عليه الموت فاقتلوه وبعد ذالك اصلبوه فلما رأا السوقة أنه يأمر بالمعروف وينها عن المنكر أقبلوا نحو الامام المعصوم ، وقالوا له يافقيه إجعلنا بينك وبين النار حجاباً ، فقال لهم المعصوم فيماذا ؟ قالوا له قتلت نعامة للوزير فهو يغرمنا فيها ألف مثقال ، فقال لهم نعم ، ثم إن المعصوم سار عند يحيا بن فانو ، فأعلمه بذالك ، فقال له والله يافقيه ما عرفت ذالك ، فأمر الوزير أن يغرم ما أخذ من الناس من المظالم وأراد

I8) **صاء** : هى قرية تاوريرت الحالية ، وهى واقعة على وادى زا الذى ينطق زايه مغلظاً بين الزاى والصاد .

I9) هى قرية كرسيف الحالية الواقعة على نهر ملوية فى الطريق بين وجدة وتازة .

قتله ، فقال له المعصوم ما عليه قتل ، إنما عليه الأدب فأمره ورد المظلمة ونادا المنادى يأمر يحيا بن فانو من ظلمه الوزير فليصل ينصف وحسيب من تقلد الله ، فلما وصا المنادى طرف المدينة نادا أن لا سبيل لمن يغرم فى النعامة شيئاً إلى الابدين .

وأمر بالمعروف فيهم ونها عن المنكر ، وقال من غد خذوا على أنفسكم نسير إن شاء الله ، فلما ساروا جدوا حتى أشرفوا على أمليل (20) فقال المعصوم ما اسم هاذا الموضع ؟ قالوا له أمليل ، فرد المعصوم يده للخليفة عبد المؤمن أمير المؤمنين ، وقال له اعقل على هاذا الموضع ، لابد لك أن تركز عليه إن شاء الله .

ثم جددنا السير حتى وصلنا لدشر قلال (21) ، فنزلنا فيه بالمسجد ، فسمع المعصوم بالدشر اللهوَ وصراخَ الرجال والنساء ، فقال غيِّروا هاذا المنكر ، وأمروهم بالمعروف ، وأشار المعصوم بيده للحاج الدكالى وعبدكم الفقير لله ولكم ، فقمنا حتى وصلنا إليهم ، فقلنا لهم قد حرم اللهو والمنكر لأنه من أفعال الجاهلية ، وما كفا ان الرجال والنساء معاً لا فرق بينهم ؟ فقالوا هاكذا السيرة عندنا ، فأمرناهم بالمعروف فلم يسمعوا ونهيناهم عن المنكر فلم ينتهوا فأعلمنا المعصوم بذالك وقلنا لهم يأمركم الفقيه بالمعروف فقالوا معروفنا عندنا ومعروفكم عندكم ، سيرا ، وإلا نُمثل بكما وبفقيهكما ، فأعلمنا المعصوم بما قالوه ، فقال المعصوم ياأبا بكر جهِّز الدابَّة وألق عليها الكتب ، وسيروا عنهم لئلا يصيبهم بلاء فيصيبنا معهم ، فمشينا حتى وصلنا من ليلتنا مخاض النساء فلما وصلنا الفج رد المعصوم رأسه للخليفة وقال له اعقل على هاذا الموضع إذا كان رجوعك عليه وسارّه بكلام ، فأقمنا فيه حتى طلع الفجر وصلينا الصبح ومشينا للمقرمدة فنزل المعصوم بها عند عبد الله الفقيه ، ومنها نحو عين الرقى عند ابن مضكود ، وكان الطلبة يهرعون إليه من كل جانب ومكان ، ثم خرجنا نحو فاس فى أمن ودعة وبركة من الله .

---

20) قرية ببطن أهل السدس من قبيلة غياثة ، واليها اضافة وادى أمليل .

21) لعله الدشر المعروف اليوم بعين بوقلال الواقع بتراب قبيلة مكناسة على الطريق الذاهب من تازة الى أكنول .

باب نذكر فيه

دخول المعصوم فاسا ونزوله بها

إعلم أسعدك الله سعادة المقربين أنه لما دخل المعصوم فاساً نزل بها بمسجد ابن الغنام ، ثم رحلنا منه لمسجد ابن الملجوم ، ثم منه لمسجد يعرف بطريانة ، لأنه كان فى الصومعة بيت ، وكان المعصوم يعمره ويقرىء فيه العلم ، وكانت طلبة فاس يهرعون إليه من كل مكان ، ويتصايح بعضهم لبعض يقولون تعالوا بنا للفقيه السوسى الذين منهم علي بن الملجوم ، وأخوه أحمد ، وابن أبى داوود ، وأحمد بن دبوس ، وعبد الرحمان بن الشكّة ، وأحمد بن بيضة ، وابن أحمد ، وعبد الرحمان الشريف ، وابن مسولة ، وابن برقوقة ، وعبد الرحمان بن زكور ، وابن الغرديس ، ويوسف ابن المغيلى ، وأحمد بن يعبد راسه ، هاؤلاء الذين كانوا ملازمين الامام المعصوم يأخذون عنه العلم ويذاكرونه فيما عندهم من المحفوظ، فكان المعصوم يفحمهم ويفهمهم، وكان المعصوم يمشى ويلقا الصغار إذا خرج ويرونه ويتعلقون به ، فكان يمر يده المباركة على رؤوسهم ويقول لهم أسعدكم الله ، أي زمان تدركون يابني.

فلما كان يوم" من الأيام دخل علينا المعصوم وقال لنا أين الصبيان ؟ فقلنا هنا نحن حاضرون ، قال ما منكم أحد غائب ، قلنا كلنا حاضر ، فقال المعصوم اخرجوا واقطعوا مقارع من شجر التين الذى أسفل الوادى الذى لا ينتفع به وأقبلوا بسرعة ، وكنا فى سبع نفر أولنا الخليفة عبد المؤمن بن علي ، وعبد الواحد ، والحاج عبد الرحمان ، والحاج يوسف الدكالى ، والعبد الفقير أبوبكر بن علي الصنهاجى المكنا بالبيذق ، وعمر بن علي ، وعبد الحق بن عبد الله ، وكانوا يقرأون على المعصوم ، فخرجنا السبعة وأقبلنا بسبعة مقارع من ذكار التين ، فقال لنا أخفوا مقارعكم وسرنا معه وما علمنا أين يتوجه حتى وصلنا زقاق بزقالة ، قال لنا تفرقوا على الحوانيت ، وكانت الحوانيت